المثاقفة والهوية

Acculturation and identity

طالبة الدكتوراه: كبايرية فتيحة
الأستاذ الدكتور: تومي سعيد

قسم اللغة والأدب العربي -جامعة المدية (الجزائر)
مخبر انتماء طالب الدكتوراه: مخبر الدراسات النقدية ، جامعة العفرون
kebairiafatiha@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2023/10/01	تاريخ القبول: 2025/03/14	تاريخ النشر: 2025/03/15

ملخص:

تعد ظاهرة المثاقفة عبر العصور، من أهم الأمور التي حظيت بمكانة عظمى في تاريخ الحضارات. إنها ظاهرة طبيعية حتى وإن تنوعت أشكالها وتعددت أنواعها. إن مصطلح التثاقف فيه تعارف واحتكاك بالآخر، والاطلاع على ثقافته وحضارته. ومن هنا، نطرح التساؤلات في ظل هذه الحتمية، هل مصطلح المثاقفة مظهر من مظاهر التكافؤ والاعتدال؟ أم حضور الأنا وإقصاء الآخر؟ لقد تعددت صور الهيمنة حاليا في مختلف المجالات، وتغيرت تسميتها وتعدد أشكالها، من هيمنة إلى تبعية إلى تطبيع في الوقت الراهن، حتى أصبح الأنا يذوب في الآخر .

ولكن هل يمكن أن نحافظ على هويتنا وخصوصيتنا من سمات حضارية مع الاندماج مع الآخر في نفس الوقت؟ لأن العصر الحالي يتطلب منا التثاقف والتلاقح والاحتكاك.

الكلمات المفتاحية: المثاقفة ، الهوية ، التعارف ، الاحتكاك ، الهيمنة .

Abstract:

The phenomenon of succession throughout the ages is one of the most important things that has gained a great place in the history of civilizations. It is a living natural phenomenon, even if its forms and types are diverse.

The term affinity is the value of getting to know and interacting with the other and learning about his compatibility and civilization.

Hence, we raise questions in light of this inevitability: Is the term a manifestation of equality and quantitative moderation, the presence of the ego and the exclusion of the other? There are many forms of hegemony currently in various fields, and

its name and multiplicity of forms have changed from domination to subordination to normalization at the present time. But is it possible to preserve our identity and privacy as cultural characteristics while integrating with others at the same time, because the current era requires from us acculturation, cross-fertilization, and contact؟

***key words**:* Acculturation, identity, acquaintance, contact, dominance

المقدمة

تعد ظاهرة المثاقفة عبر العصور من أهم الأمور التي حظيت بمكانة عظمى في تاريخ الحضارات، بما أضيفت من تطور للأمم والشعوب باعتبارها قيمة حضارية كبرى .

والمثاقفة ظاهرة طبيعية حتى وإن تنوعت أشكالها وتعددت أنواعها فهي مسايرة للوجود الإنساني كله باعتبارها خاضعة لعاملين مهمين هما:

أولا : تعدد المجتمعات البشرية واختلاف ثقافتها.

ثانيا : ميل الإنسان فطريا إلى التواصل مع غيره باعتباره كائن اجتماعي .

كون ذلك ارتباطا مباشرا أو غير مباشرة من خلال امتزاج الثقافات نتج عنه حضارة إنسانية جامعة، وإذا رجعنا إلى الحضارة العربية الإسلامية نجد أن القرآن الكريم الكتاب السماوي الذي أشار إلى ذلك التلاقح بين الشعوب،في قوله تعالى : "إن خلقناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم" [1]

إن مصطلح التعارف فيه احتكاك بالآخر والاطلاع على ثقافته وحضارته والتعمق في خصوصيته من خلال التفاعل في مختلف المجالات .

وامتزاج الثقافات من يونانية أو هندية وفارسية مع الثقافة العربية الإسلامية إلا دليلا قاطعا على قوة التأثير والتأثر فنتج عنه بحر خليط من الحضارات.

هذا التفاعل زاد حديثا في جميع المجتمعات فصار العالم قرية كونية صغيرة مصطلح على تسميتها بالعولمة . ومن هنا نطرح التساؤلات في ظل هذه الحتمية:

- هل مصطلح المثاقفة مظهر من مظاهر العولمة ؟
- وهل المثاقفة تكافؤ واعتدال ؟
- أم حضور الأنا وإقصاء الأخر ؟

إن المثاقفة أو التثاقف كمصطلح أكثر شيوعا وانتشارا في عهدنا الحالي المعاصر .

مفهوم المثاقفة في المعاجم العربية أهمها معجم الصحاح للإمام بن عبدالقادر الرازي ثقف الرجل صار حاذقا حقيقيا فهم ثقف[2] ومنه المثاقفة .

وجاء في المعجم الوسيط ثقف صار حاذقا فطنا وثقف العلم والصناعة حذقها وثقف الشيء: ظفر به. والثقافة: العلوم والمعارف والفنون يطلب الحذق فيها .

والمثاقفة اصطلاحا: هي التأثر والتأثير في مختلف[3] مجالات الحياة، وهي التفاعل والتلاقح والامتزاج بين مجموعة من الثقافات ينتج عنه امتزاج وخليط بين الحضارات تقوم المثاقفة على "اختزال واقع التعايش وتلاقح ثقافات مختلفة".[4]

إن المثاقفة يعبا والأخرى هي اختزال لمعظم المعارف المختلفة الثقافات بين الحضارات .

وفي العالم الاصطلاحي للثقافة نجد المثاقفة،والتثاقف والتثقيف كلها مصطلحات تشترك في دلالة اصطلاحية متقاربة أساسها التداخل الحاصل، بين مختلف التفاقات على مستوى التأثير والتأثر والاستيعاب والتماثل والتبادل الثقافي والعبور نحو ثقافات أخرى لبناء حضارة إنسانية. ولكن علينا أن نطرح التساؤل التالي: هل المثاقفة كلها ايجابية ؟

وللإجابة عن هذا التساؤل يثير موضوع التفاعل بين الثقافات والحضارات المتعاقبة جدلا واسعا على الصعيد المعرفي بوجه عام .

لقد اهتم المفكرون والباحثون في تاريخ العلاقات بين الحضارات الإنسانية بدور الحوار حول فرضية وجود تداخل معرفي قديم بين ثقافات متباينة نتج عنها تواصل ايجابي مع الثقافات سواء كانت عربية أو غربية .

إذا عدنا إلى قراءة في التاريخ يظهر هناك ارتباط مباشر بين المجتمعات من خلال التفاعل والاحتكاك لعوامل متعددة كترجمة، وانتشار المعارف وتطور العلم والبعثات العلمية والتكنولوجيا.

لقد ظلت الحضارة العربية في عزلة دائمة عن العوالم المجاورة، إلا في فترة متأخرة عندما حملت مشعل الحضارة العربية الإسلامية وفتحت ذراعيها لتحتضن كل ثقافات الأمم السابقة كالفارسية، الهندية، اليونانية في العصر العباسي، نتج عنها ثقافة التحضر القائم على التفاعل الايجابي والمثمر في مختلف الميادين. كما أضافت هذه الأخيرة سيلا من المعارف الإسلامية والعربية للثقافة الإنسانية .

"إن الثقافة العربية الإسلامية إذا خفي فضلها على الحضارة الأوروبية فهي التي حفظت الثقافة اليونانية من الضياع" [5]

إن المثاقفة بهذا المفهوم تتأرجح بين اتجاهين:

الأول : يسير في اعتدال وتعاطي بايجابية مع ثقافة الآخر.

والثاني: ينصهر ويذوب في ثقافة الآخر ولا تظهر سمات ثقافته فيظل تابعا للآخر .

إننا نشهد في الخطاب العربي بعض المفكرين العرب في تهاملهم من المثاقفة بحذر شديدا جدا لأنهم ميزوا بين مفهومين لمثاقفة.

إننا نشهد في الخطاب العربي بعض المفكر ين العرب في تعاملهم من المثاقفة بحذر شديد جدا لأنهم ميزوا بين مفهومين بين الطرفين

المثاقفة تقوم على التكافؤ والاحترام المتبادل بين الطرفين

المثاقفة تقوم على اختزال الآخر والهيمنة

للمثاقفة شروط حتى تكون ايجابية:

1- الاعتراف بالهوية المستقلة التي تشكل الخصوصية المعرفية التي تنتج في علاقة تكافؤية بين الأنا والأخر .

2- وجود اتساق معرفي وحضاري يحضر فيه الطرفان بصيغة المساواة لا بصيغة القوي والضعيف.

3- الاعتراف الأنا والأخر بمعادلة التساوي في كل شيء.

4- أن يملك المثاقف رصيد معرفي يؤثر في الأخر دون أن يفقد هويته.

5- البعد في المثاقفة عن سلوك إقصاء الآخر مهما كان رصيده المعرفي حتى وإن خالف في الرأي أو الفكر أو المعرفة.

وبهذه الشروط تكون المثاقفة قد حققت أهدافها والمثاقفة تعني التأثر والتأثير الايجابي في الآخر والأخذ منه ما يلائم تراثه وتقاليده وحضارته مع الاحتفاظ بقيمهالأصلية .

إن الخطاب العربي عرف عدة قراءات هناك قراءة منطقية تسير وروح العصر يعني ضرورة التثاقف والاطلاع على الآخر والأخذ منه الآن هناك الفعل ورد الفعل ومن المنطقي تتوحد الأنا مع الآخر .

فتؤثر وتتأثر فالمثاقفة بحر تلتقي به الأنهار لتكون مجرى كبير ينهل منه كل مثقف عن طريق الترجمة فلا يجب الانغلاق على الذات والتقوقع في مكان واحد .[6]

فلا توجد ثقافة واحدة بل ثقافات متعددة تسمح بربط الحاضر بالماضي حجما إن المثاقفة لها عدة مستويات اجتماعية، سياسية، ثقافية مع الإبقاء على الثوابت.

من الطبيعي أن الترجمة نشاطا إنسانيا يعد جسرا لتواصل والتلاقح بين اللغات والحضارات ورحلة إلى اكتشاف عوالم جديدة وأفاق متنوعة ولترجمة أهمية بالغة في نقل التراث الإنساني واكتشاف خباياه.

وتربط الترجمة بالمنافقة ارتباطا وتبعا ولهذا يتبادر إلى الأذهان الإشكالية التالية هل تساهم الترجمة في تكريس لغة المتافقة ولغة الحوار بين الثقافات والحضارات المتنوعة ؟

إن تقلص دور الترجمة نتيجة للعولمة الكاسحة التي لغت الخصوصيات اللغوية والثقافية الأهم في كل الهيمنة وفرض الثقافة الواحدة

ومن هنا نجد الترجمة لها دورا إيجابي لأنها رديفة التعددية والتنوع والحوار الإيجابي بين الثقافات في ظل هذه الإشكالية وغيرها

إن الترجمة باعتبارها جسر التواصل بين اللغات المختلفة والحضارات تعد آلية من آليات المستعملة في خلق التلاقح والتفاعل شيء الأهم من خلال منطق الأخذ والعطاء في جميع المجالات الفكرية والمعرفية والثقافية ومن المنطق أن هذا التواصل أصبح يعتمد على وسيلة الترجمة كضرورة إنسانية لهذا التعدد والاختلاف.

وهي لا تهدف إلى المطابقة والتماثل وإنما تكرس ثقافة الاختلاف والتنوع وتصبح علامة على وتبعية ونقل وتجمد.

وإذا عدنا إلى التراث الإنساني نجد شواهدا على ذلك مثل الحضارة العربية الإسلامية واحتكاكها بالحضارة الفارسية، الهندية واليونانية فهي لم تتموقع على نفسها بل حاولت المنافسة، وعبر الترجمة، أن تتفاعل مع الحضارات الأخرى، وأن تحترف من منابعها في مختلف المجالات ومن هنا نقد الترجمة ذريعة لأن كلاهما بحث نحو آفاق مغايرة.

متى تصبح المثاقفة سلبية؟

إننا نجد بعض المفكرين العرب، اعتبروا المثاقفة غزو و تبعية واستسلاما من بينهم محمد الجابري"الذي اعتبر المثاقفة هيمنة واختراقا تقوم على نفي الآخر" وهيمنة التي أصبحت تسمى العولمة."إن العولمة ليست مجرد آلية من آليات التطور الرأسمالي".[7]

وهناك من دعم هذا المفكر، وسار على منواله ودعم رؤيته واعتبروا،أن المثاقفة رسخت فكرة الغزو الثقافي والتبعية، خاصة ما عرفته المجتمعات العربية خلال فترة الاستعمار.

هذا الآخر الذي حاول طمس معالم ثقافة هذه البلدان، والفضاء على لغتها وتاريخها والجزائر خير دليل على ذلك.

لقد تعددت صور الهيمنة حاليا في مختلف المجالات وتغيرت تسميتها، فصارت هذه البلدان تأخذ ولا تعطي، وتتأثر بالثقافات خاصة الغربية منها ولا تؤثر فيها، وتغير شكلها من هيمنة إلى تبعية إلى تطبيع في الوقت الراهن لبعض المجتمعات العربية وأصبح لانا يذوب في الآخر .

ومن هنا نطرح السؤال هل يمكن أن نحافظ على هويتنا ونندمج مع الآخر في نفس الوقت؟

إن الهوية تعني الذاتية أو الأنا هذا المصطلح مشتق من الفلسفة وتعني الضمير هو الذي مشتق من الهو وقد تم وصفه باسم معرفة يعني الاتحاد مع الذات .

وجاء في الموسوعة الفلسفية معناه التماثل أو التساوي موضوع ما مع نفسه أو ظاهره ما مع نفسها ويشير الفيلسوف العربي في معنى الهوية في قوله: "هو الشيء نفسه وتفرده، وخصوصيته ولا يقع فيه الاشتراك".

وهوية الفرد أو المجتمع تعني المحافظة على خصوصية يعني كل ما يخص لغته وقيمه وحضارته وتاريخه مع تطوير إمكاناته وبالتالي يؤثر في الآخر .

والهوية لمتلقي كالوعاء الذي ينضح بما فيه من أفكار ومعتقدات مع ثقافة أخرى قد اطلع عليها وتأثر بها. وبالتالي يساهم في بناء هويته وتشكيل معارفه الذاتية والإيديولوجية ومدى تفاعله مع الآخر .

تواجه المثاقفة إشكاليات في الخطاب النقدي المعاصر ، إذ كيف تلقى العرب النظريات والمناهج العربية ؟ وماذا استفاد النقد العربي بمثاقفة النقد العربي ؟

ورغم ذلك كله هل حافظت المثاقفة النقد الغربي ؟

ورغم ذلك كله هل حافظت المثاقفة العربية على تواليتها العربية وخصوياتها في ظل العولمة ؟

إن الفكر الغربي يقوم على اعتبارين أساسين الأول : تضخيم الذات والتمركز حولها وجعلها رموا التطور الأعمال .

والثاني : تغيب الآخر والانتقاص من منزلته وتهميشه ، ومحاولة إقصائه ، ولهذا كانت المثافقة مبنية على مبدأ الآخذ والعطاء ، والانبهار بالآخر و الأخذ منه فقط في حين أن المثاقفة الحقيقية تبني على المشاركة والحوار مع ضرورة الموضوعية وعدم التحيز .

وباتت المثاقفة في ظل العولمة تختزل كل المعطيات والاختلافات المعاصرة وتهدف إلى إلغاء الحدود والفواصل من جهة وتمارس سياسة الطمس واستبعاد الحدود الجغرافية والاجتماعية وتنفي الانتماءات فهي عبارة عن غزوتها ثقافي متكامل .

فيحين يتأسس مفهوم المثاقفة على الحوار وعد التحيز والإكراه وترجع أهميتها في طرح أفكارنا ورؤيتنا على الآخر والعكس فهي متفاعل بين الأنا والآخر من أجل صياغة رؤية جديدة في ظل التطورات الحضارية للعالم .

فالمثاقفة تختزل واقع تعايش وتلاقح بين مختلف الثقافات من أجل الارتقاء بالإنساني وخذ منه

وإذ أرجعنا إلى الخطاب الغربي نرى بعض المستشرفين أقروا بمكانة الثقافة العربية والإسلامية و إسهامها في الثقافة الغربية لتقليل من خطر الغزو الثقافي من جهة والتأكيد على أصالة الثقافة العربية أو تهميشها رغم ما يطرحه الفكر الغربي من نفي معالم الثقافة العربية وإسهاماتها في الفكر الإنساني وفعل المثاقفة غايته استيعاب أحمر قدر ممكن من المعارف الإنسانية ويظل هذا الفعل قائم على الترجمة لأنها تكريس لغة المثاقفة ودورها الفعال في ظل العولمة التي تلغي الخصوصية اللغوية والمعنوية الثقافية للأمم.

من الطبيعي أن الترجمة نشاطا إنسانيا يعد جسرا للتواصل والتلاقح بين اللغات والحضارات ورحلة إلى اكتشاف عوالم جديدة وأفاق متنوعة. وللترجمة أهمية بالغة في نقل التراث الإنساني واكتشاف خباياه .

وتربط الترجمة بالمنافقة ارتباطا وتبعا ولهذا يتبادر إلى الأذهان الإشكالية التالية هل تساهم الترجمة في تكريس لغة المثافقة ولغة الحوار بين الثقافات والحضارات المتنوعة ؟

إن تقلص دور الترجمة نتيجة للعولمة الكاسحة التي لغت الخصوصيات اللغوية والثقافية الأهم في كل الهيمنة وفرض الثقافة الواحدة .

ومن هنا نجد الترجمة لها دورا إيجابي لأنها رديفة التعددية والتنوع والحوار الإيجابي بين الثقافات في ظل هذه الإشكالية وغيرها .

إن الترجمة باعتبارها جسر التواصل بين اللغات المختلفة والحضارات تعد آلية من آليات المستعملة في خلق التلاقح والتفاعل شيء الأهم من خلال منطق الأخذ والعطاء في جميع المجالات الفكرية والمعرفية والثقافية ومن المنطق أن هذا التواصل أصبح يعتمد على وسيلة الترجمة كضرورة إنسانية لهذا التعدد والاختلاف.

وهي لا تهدف إلى المطابقة والتماثل وإنما تكرس ثقافة الاختلاف والتنوع وتصبح علامة تبعية ونقل وتجمد.

خاتمة:

وفي ختام هذا المقال نصل إلى ضرورة حتمية ونتيجة منطقية لا مفر منها وهي أن المثاقفة لابد منها في عصرنا الحالي إذ لا يمكن أن نبقى بعيدين عن الآخر، منغلقين على أنفسنا متقوقعين على ذواتنا، علينا آن نؤثر ونتأثر في ظل التحولات الحاصلة في مختلف المجالات والتطور الحاصل في العالم. ولكن يشترط أن تكون المثاقفة الواعية الايجابية القائمة على الأخذ والعطاء والتأثير والتأثر بين الأنا و الآخر، حتى نكون حضارة إنسانية تذوب فيها الفروقات والقوى العظمى والهيمنة والسيطرة والغزو الثقافي وبهذا نصل إلى هدف المثاقفة الحقيقي .

قائمة المراجع:

- القرآن الكريم
- محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، مختار الصحاح، دائرة المعاجم في مكتبة لبنان (بيروت: د ط، 1986) ص 36
- معجم اللغة العربية: المعجم الوسيط، ج1، دط، دائرة الدعوة اسطنبول، تركيا دت،ص 98
- بيار بونت - ميشال ايزار وآخرون، معجم الإثنولوجيا والأنتروبولوجيا، صباح مجدالمؤسسة الجامعية للدراسات والتوزيع والنشر "مجد" - لبنانالطبعة الثانية -2011
- أ.د عبد الملك بو منجل، الخلفية الثقافية للمذاهب الأدبية، الخلفية الثقافية في الأدب والنقد ، 2015، جامعة محمد لمين دباغين ، سطيف، الجزائر.
- أ. محمد عابر الجابري: العولمة والهوية الثقافية، مجلة الفكر، العدد 6، 2010، ص 56

الهوامش

[1] الآية من سورة البقرة آية 13

[2] محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي **مختار الصحاح**، إخراج ، مكتبة لبنان، دط، بيروت، 1986 ، ص 36

[3] معجم اللغة العربية : المعجم الوسيط، ج1، دط، ،اسطنبول ، تركيا دت، ص 98

[4] معجم النترولوجيازالانتولوجيا مشال ميزار ترجمة مصباح الغد.

[5] مجبر المتاقفة العربية في الادب ونقده محاضرات الملتقي الاولى الاول تقديم وتراسيف اد عبد الملك بو منجل

[6] محمد الجابري مفكر وناقد

[7] محمد عابر الجابري، "**العولمة والهوية الثقافية**"، مجلة الفكر، العدد 6، المغرب، ص 56